يونّاليس فى مصر

كاتب هذا المقال المرحوم الدكتور وهيب كامل ، وقد سلمه للمجلة قبل وفاته بأسبوعين فى يناير سنة ١٩٥٧ . والدكتور وهيب كامل معروف لقراء هذه المجلة . وقد كان لموته المفاجئ رنة أسف شديد فى الأوساط العلمية .

تخرج الفقيد فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩ ، من قسم الدراسات القديمة وحصل منه على درجات الماجستير عام ١٩٤٢ ؛ ثم حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه ببحث عنوانه The Sources of Plantine Comecy .

ونشر الفقيد كتبا وأبحاثاً عديدة منها – باللغة العربية – هيرودوت فى مصر (دار المعارف ١٩٤٦) ، وديودور الصقلى فى مصر (دار المعارف ١٩٤٧) ، واسترابون فى مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٣) ، وأميانوس ماركلّينوس فى مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٥) . كما نشر أبحاثا ومقالات عديدة باللغة العربية والإنجليزية ، ظهر الكثير منها بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

والمجلة إذ تنشر لقرائها هذا البحث ، تحيى ذكرى مؤلفه الفقيد الكريم وتسأل الله له خير الجزاء بقدر ما قدم للعلم والمتعلمين .

كان يوناليس أقذع شعراء الهجاء عند الرومان ولعله أبرز شاعر هجائى فى العالمين القديم والحديث جميعاً . أخرج فى القرن الثانى للميلاد ست عشرة قصيدة هجائية . أصدرها فى خمس مجموعات على فترات متقاربة . ولا نعرف من سيرته إلا النذر اليسير نستنبطه من أبيات شعره التى تعمد فيها أن يخفى ملامح شخصيته وراء ما يعالج من موضوعات . ولعل استخفاءه هذا كان نتيجة للخوف مما يتصدى له الهجاءون عادة من بطش الأباطرة . أو لعله كان زهداً فى التحدث عن نفسه الحزينة وظروفه القاسية ، أو لعله كان ، موضوعياً ، يؤثر إبراز الموضوع الذى يتناوله ويفرض على ذات نفسه أن تتوارى فلا تلوح من خلال ما يصور من مخازى المجتمع الذى يهجوه .

وتضم المجموعة الأولى القصائد من ١ — ٥ . وقد وردت فى القصيدة

الأولى إشارة إلى نفى ماريوس بريسكوس(١). الذى لم تنته محاكمته إلا سنة ١٠٠ ب . م . فلا بد أن تكون هذه المجموعة قد صدرت بعد هذا التاريخ . وثمة إشارة أخرى ، وردت فى القصيدة الثانية ، إلى حملات الإمبراطور أوتو إلى أنها « تستحق أن تسجل فى الحوليات الجديدة والتاريخ الحديث(٢)» وقد وصف المؤرخ تاكيتوس هذه الحملات فى « تاريخه » الذى صدر فيما بين ١٠٤ و١٠٩ ولعله أشار إليها أيضاً فى حولياته وقد كان متوفراً على إصدارها حوالى ١٠٩ . فالأرجح أن تكون هذه المجموعة قد صدرت حوالى سنة ١١٠ .

والمجموعة الثانية قاصرة على القصيدة السادسة وهى كبرى قصائده . وفيها إشارة إلى زلزال فى الشرق(٣) ؛ فقد حدث زلزال فى أنطاكية فى ديسمبر سنة ١١٥ . ولا بد أنه كان مادة للحديث فى روما فى السنة التالية . فالأرجح أن يكون هذا الكتاب قد صدر سنة ١١٦ .

وتضم المجموعة الثالثة القصائد ٧ — ٩ . وقد أعلن الشاعر فى أولاها « أن الأمل فى الأدب والدراسات الأدبية يتوقف على قيصر لأنه « وحده يحترم ربات الفنون وهن فى هذا العصر حزينات(٤) . وهى تحية لعل الشاعر قد استقبل بها عهداً جديداً لإمبراطور جديد يرعى الفنون ويعين الفنانين . وأحرى بهذا الإمبراطور الجديد أن يكون أدريانوس وقد دخل روما سنة ١١٨ ؛

وتضم المجموعة الرابعة القصائد ١٠—١٢ وليس فيه من الإشارات ما يعين على جلاء سيرة الشاعر .

وتضم المجموعة الخامسة القصائد ١٣ — ١٦ . وقد كتبت القصيدة ١٣

---

(١) ١ ، ٤٩ — ٥٠ « إن ماريوس فى منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ، ويرتع فى غضب السماء ، أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين » . وقد طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس بريسكوس فأدين بتهمة الرشوة وسوء الإدارة ونفى . وقد ورد وصف المحاكمة فى رسائل بلينيوس (المجموعة الثانية ، الرسالة ١١ ، ١٢)

(٢) ٢ ١٠٢ — ٣ .

(٣) ٦ ، ٤١١ « إن المدن تهتز ، والأرض تغوص » . راجع فى تاريخ الزلزال «حرب ترايانوس البارثية » تأليف ف . أ . ليبر . اكسفورد ١٩٤٨ ص ٩٥ وما بعدها.

(٤) ٧ — ١ — ٣ .

فى سنة ١٢٧ . ذلك أن الشاعر يواسى فيها بعض أصدقائه وقد وقع فريسة للاحتيال فيخاطبه بقوله :

« وهل تعجب أنت مما حدث وقد جاوزت السنين إذ ولدت فى عهد قنصلية فونتيوس ؟[١] » وقد كان فونتيوس قنصلا سنة ٦٧ . ثم إن الشاعر يصف فى قصيدته ١٥ حادثة وقعت فى مصر فيقول « وقعت حديثاً فى عهد قنصلية يونكوس »[٢] وقد كان يونكوس قنصلا سنة ١٢٧ . ثم أن الشاعر فى قصيدته ١٤ ينعى على الرومان تهودهم وتختنهم[٣]. وقد قام اليهود سنة ١٣١ بثورة عارمة من أسبابها أن الإمبراطور أدريانوس قد أصدر أمره بمنع الختان . فلابد أن تكون القصيدة قد كتبت قبل صدور هذا الأمر الإمبراطورى الذى جعل التختن عملا غير مشروع . وإذن فقد صدرت المجموعة الخامسة فيما بين ١٢٧ ، ١٣١ .

وإذن فقد كان نشاطه الأدبى واقعاً فى عهدى الإمبراطورين ترايانوس (٩٨ — ١١٧) وهادريانوس (١١٧ — ١٣٨) ولعله لم يمتد إلى آخر حكم هادريانوس .

وفى شعره إشارات طفيفة أخرى إلى حياته . فهو يتحدث فى قصيدته ١١ عن نفسه باعتباره رجلا مسناً[٤] ، وقد صدرت هذه القصيدة ضمن المجموعة التى نشرت فيما بين ١١٨ ـ ١٣٠ فأحرى بنا أن نضع ميلاده بين سنة ٦٠ ، ٧٠ ميلادية

وهو يتحدث عن مصر فى قصيدته ١٥ ويقول « كما لاحظت بنفسى[٥] وهى إشارة إلى زيارته لمصر وإقامته بين أهلها[٦] .

---

(١) ١٣ ، ١٦ — ١٧
(٢) ١٥ ، ٢٧
(٣) ١٤ ، ٩٦ — ١٠٦ .
(٤) ١١ ، ٢٠٣
(٥) ١٥ ، ٤٥
(٦) راجع J.Wright Duff فى A Literary History of Rome in the SilverAge الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ ص . ٦٠٢ هامش ٢١١ حيث يقرر أن قوله « كما لاحظت بنفسى » ليس دليلا ملزماً على زيارته لمصر .

وإنا لنعلم أن يوناليس كان مقيما فى روما حوالى سنة ٩١ ، ٩٢ لأن صديقه الشاعر مارشياليس قد كتب إليه فى ذاك الحين رسالتين[1] .

وهناك سيرة قديمة تعزى أحياناً إلى المؤرخ سيوتونيوس ولكنها على التحقيق متأخرة عنه[2]، وهى تقول[3] «يونيوس يوناليس : ليس من المحقق إن كان ابن أو ربيب عتيق ثرى . مارس الخطابة إلى منتصف عمره تقريباً إرضاء لنزعته لا استعداداً لتعاطى الفلسفة أو المحاماة . وبعد أن كتب قصيدة هجائية من أبيات قليلة وإن كانت مرضية ضد الممثل باريس وضد شاعر آخر ازدهاه أنه حظى بوظيفة حربية لمدة ستة أشهر فحسب ، توفر فى إمعان على كتابة هذا الضرب من الشعر . ومع أنه ظل مدة طويلة لا يجرؤ على إلقاء شعره حتى فى المحافل الصغيرة ، فإنه سرعان ما سُمع فى المحافل الغاصة بنجاح عظيم مثنى وثلاث . حتى أنه كان يضيف أبيات جديدة إلى القصائد التى كان قد صاغها من قبل .

« إن ما لا يمنحه العظماء سوف يمنحه ممثل . فلماذا تزور دور النبلاء العظيمة من الكاميريين والباريين ؟ إن پيلوپيا هى التى تعين القادة وفيلوميلا هى التى تعين الطّرابنة » .

وكان المثل محل رضا فى هذا الحين فى البلاط وكان يرقى يومياً الكثيرين ممن يتملقونه ، ومن ثم فقد اتهم يوناليس بأنه كان يشير تلميحاً إلى هذا الذى يجرى فى البلاط . وبالرغم من أنه كان فى الثمانين من عمره يومئذ فقد نفى عن المدينة فى وظيفة حربية وأرسل قائداً لكتيبة فى طريقها إلى أقصى حدود مصر . ولقد اختير له هذا الضرب من العقوبة لأنه يناسب ما اقترف من جرم هين عابث . والحق أنه مات بعد وقت قصير جداً من الحزن والمضض .

---

(١) مارشياليس ، ٧ ، ٢٤ و ٧ ، ٩١ .

(٢) كتب سيوتونيوس كتابه سنة ١١٤ وقد عاش يوناليس إلى مابعد ١٢٧ فلا بد أن تكون سيرته هذه بقلم متأخر عن سيوتونيوس .

(٣) راجع نص هذه السيرة فى "Thirteen Satires of Juvenal" J. E. B. Mayer سنة ١٨٧٨ الجزء الثانى المقدمة صفحة ١١ وفى كتاب "Juvenal and Persius" G.G. Ramsay سنة ١٩٤٠ . المقدمة صفحة ١٧ .

وهناك ثمان سير وشروح أخرى كلها أحدث من هذه السيرة عهداً ، وهى تتضارب تضارباً يحملنا على الأخذ بها بحذر شديد . فمنها ما يذهب إلى أن نفيه كان إلى بريطانيا contra Scotos وهى متأثرة ولا شك بدقة وصفه لبعض أرجاء الجزائر البريطانية[١] . ومنها ما تذهب إلى أن نفيه كان فى عهد الإمبراطور نيرون[٢] (٥٤ – ٦٨) وهو خطأ ظاهر لأن يوناليس كان لا يزال فى قيد الحياة سنة ١٢٧ . ومصدر هذا الخطأ أنه كان هناك ممثلان يسميان باريس ، وقد خلط الشراح بينهما أما أحدهما فقد قتل فى عهد نيرون وأما الآخر فقد لاقى المصير نفسه فى عهد الإمبراطور دوميتيانوس (٨١ – ٩٦) ، فكان الأولى بالشراح أن يصرفوا الكلام الوارد فى القصيدة السابعة إلى ثانيهما دون الأول . ومع ذلك فالظاهر أن دوميتيانوس – على شدة مقت الشاعر له[٣] – لم يكن مسئولا عن نفيه ، لأن مارشياليس كان يراسل يوناليس فى روما سنة ٩١ أوحولها ، ولم يكن مارشياليس من استقلال الرأى وقوة الشخصية بحيث يراسل صديقاً وقع تحت طائلة سخط الإمبراطور هذا ولم تقل « السيرة » إن الممثل المهجو كان محل رضا البلاط ، بل قالت إن ممثلا كان فى ذلك الحين أثيراً لدى البلاط . وكان الممثل باريس قد اتهم فى علاقته بزوجة الإمبراطور دوميتيانوس فاغتاله سنة ٨٣ . وليس من الجائز أن الشاعر نفى فى ذلك العهد البعيد . ومن هنا ذهب رامساى Ramsay إلى أن كل المحاولات التى تهدف إلى وضع نفى الشاعر فى عهد الإمبراطور دوميتيانوس قد باءت بالفشل[٤] وأن الأرجح أنه حدث فى عهد الإمبراطور

---

(١) راجع Duff « المصدر نفسه » صفحة ٦٠٠

(٢) راجع الشرح على البيت ٩٢ من القصيدة السابعة . Propter hunc versum missus est in exilio a Claudio Nerone.

(٣) إن كره يوناليس للإمبراطور دوميتيانوس مستفيض . انظر ٢ ، ٢٩ – ٣٣ ، و ٤ ، ٣٧ – ٣٨ ؛ ٦٩ – ٧١ ؛ ٧٢ – ١٠٣ ؛ ١٥٠ – ١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه . المقدمة صفحة ١٩ .

ادريانوس لأنه كان من رعاة الممثلين والفنانين من جميع الأنواع وأنه كان قميناً أن يثور لإهانة يتوهمها موجهة ضد أحد أخصائه[١]

ويرى هايت[٢] أنه بالرغم من أن الممثل باريس قد اغتيل سنة ٨٣ فمن الممكن أن يكون يوناليس قد كتب سنة ٩٢ هجاء لأحد أحلاس البلاط ممن يتمتعون بنفوذ فيه أقوى من نفوذ النبلاء وخصوصاً فيما يتعلق بالترقيات العسكرية ، فرأى فيه الإمبراطور عيباً فى ذاته الإمبراطورية وتعريضاً بنزاهة الحكم فنفاه . والحق أن هذا التفسير لا يعدو أن يكون فرضاً لايعززه إلا أن الشاعر كان شديد المقت لدوميتيانوس وإلى أنه جاء مصر .

فلو صح أن الشاعر قد نفى لسبب أو لآخر حول هذا التاريخ فأين كان منفاه ؟ إن كتاب السير والشراح يختلفون فى هذا كل الاختلاف فمنهم من يزعم أنه نفى فى ليبيا[٣] ومنهم من يزعم أنه نفى فى « واحة » وهم يعنون الواحة الخارجة[٤] . ولكن منشأ القول بنفى الشاعر هو السيرة التى نقلناها . فأولى بنا أن نتبعها وهى تقول إنه نفى إلى « أقصى حدود مصر » وهى تعنى على الأغلب أسوان وقد كانت مركز ثلاث كتائب رومانية فى ذلك العهد[٥]

---

(١) المصدر نفسه المقدمة صفحة ٢١

(٢) Juvenal The Sstirist: G. Highet اكسفورد سنة ١٩٥٤ صفحة ٢٥

(٣) راجع chronographia. Joannes Malalas ١٠ ، ٣٤١ ، وقد ورد النص فى Mayor . المصدر نفسه صفحة ١٢ ، وفى Highet المصدر نفسه صفحة ، ٢٣٩ . ويلاحظ . أن هذه المنطقة كانت إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس تابعة لولاية كويت وقورينة . فلم تكن إذن فى مصر .

(٤) راجع الشارح على البيت الأول من القصيدة الأولى حيث يقول :

hos autem libros in exilium missus ad civitatem ultimam Aegypti Hossim ab ipso Domitiano scripsit

وراجع الشارح أيضاً على البيت ٣٨ من القصيدة الرابعة حيث يقول :

propterea quod Juvenalis sub specie bonoris relegtus est ad cohortis curam in Aegypto Hoesa, ubi mortuus est.

(٥) راجع L'Arnèe romaini d'Égypte J. Lesquier سنة ١٩١٨ صفحات ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ،

ويعزز هذا الرأى ما يبديه يوناليس من معرفة بأسوان باعتبارها سوق للعاج فهو يقول « أما اليوم فلا يجد الأغنياء لذة فى مأكلهم ، ولا نكهة لسمك موسى Rhombus ولا لدّما damma وتبدو العطور والرياحين كأنها عطنة إن لم تكن ألواح المائدة عريضة قائمة على فهد ضخم فاغر فاه من العاج الصب المتخذ من السن الذى ترسله إلينا أسوان » .(١)

ولعله رأى وهو فى أسوان بعض أهل مروى فهو يصف نساءهم وصفاً كأنه صادر عن شاهد عيان : «من يعجب لحلق وارم فى جبال الألب أو لثدى امرأة من أهل مروى أضخم من طفلها السّمين ؟ »(٢) .

والحق أن يوناليس كان مشغول الخاطر بمصر وأهلها وآثارها ودياناتها منذ بدأ ينشر شعره ، وهو دائم الإشارة إليها من قريب أو بعيد لا تغيب عن ذهنه قط . فهو إن نعى قلة الأتقياء قال « إن الأتقياء قليل ، لا يكاد عددهم يبلغ عدد أبواب طيبة أو مصبات النيل الثرى(٣)» وإن عاب على الإمبراطور أوتو ولعه بمظهره قال « إن الإمبراطور أوتو يطل فى مرآته قبيل المواقع وهو شيء لم تأته سميراميس وهى تحمل جعبتها فى مملكتها الأشورية ولا كليوباترة التعسة على ظهر سفينتها فى أكتيوم » .(٤) وإن أراد أن يقول إن الرجل بأعماله لا بحبه قال « أسلم ياجايتوليكوس أو أنت ياسيلانوس مهما يكن منبتك فإن أنت أثبت لوطنك أنك مواطن نادر ممتاز فسيفخر بك وسيردد الجميع ما يردده الشعب كله عندما يجدون أوزيريس »(٥) .

---

(١) راجع القصيدة ١١ ، ١٢٠ — ١٢٤

(٢) » » ١٣ ، ١٦٢ — ١٦٣

(٣) » » ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧

(٤) » » ٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩

(٥) » » ٨ ، ٢٦ — ٣٠ . لقد تواترت الأقوال عند المؤرخين القدماء بتهليل المصريين عند ما يمجدون عجل أبيس إذ كانوا يعتقدون إنه تجسد لأوزريس .

راجع مينوكيوفيلكس٢٢ mox ir.u‹nts parvulo gaudet Isis, sacrdotes. exultant

وانظر ترتوليانوس « ضد ماركيو » ١ ، ١٣ Osiris . . quaesitur et cam gaudio invenitur

هذه إشارات بريئة . ولكن شعر يوناليس يفيض بأبيات تنم عن كرهه لمصر وأهلها وديانتها وتغلغل هذه الديانة فى روما بل إن حقده على أحد المصريين كان من الأسباب التى دفعته إلى كتابة الهجاء . فهو يقول فى مستهل هجائياته :

« إذا ما بنى الخصى الرقيع بزوجة ، وإذا ما كشفت ميوبا عن ثديها وامتشقت حربة وتصدت لصيد الدب الاترسكى ، وإذا ماانبرى أحدهم وقد كانت ذقنى الخشنة تتزعند ما كان يحلقها لى فى شبابى فتحدى بثروته الخاصة النبلاء قاطبة ، وإذا ما كان فرد من حثالة النيل هو كريسپينوس وقد كان عبداً فى كانوبوس[1] يطوح بعباءته الصورية على كتفه ويهوى خاتما صدفياً على أصابعه الندية لأنه لا يستطيع أن يحتمل ثقل حجر كريم أكبر من هذا حجماً . فمن العسير أن لا يكتب المرء الهجاء[2] . لقد بلغ كريسپينوس هذا مرتبة قائد الحرس الإمبراطورى فى روما . ولكن حقد يوناليس المتأجج عليه

= وانظر أيضاً بلوتارخوس إيزيس وأوزيريس ٣٩ .

وحدث فى سنة ٧٠ أن عثر على أبيس وقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيبه (راجع سيوتونيوس «حياة تيتوس») وقد كانت حفل تنصيب أبيس سنة ١٢٢ مناسبة لقيام اضطرابات فى مصر . وإنا لنعلم أن العجل أبيس كان له أجل معلوم لا يحل له أن يتجاوزه وهو خمسة وعشرون عاماً . فأغلب الظن إذن أن المناسبة التى علقت بذهن الشاعر والتى أشار إليها فى هذه الأبيات كانت مناسبة تنصيب العجل أبيس التالى للعجل الذى حضر تيتوس حفل تنصيبه سنة ٧٠ وهى تقع بين ٩٥ ، ٩٧ .

وقد ظل الاحتفال بتنصيب العجل أبيس يحيا فى مصر إلى أواخر القرن الرابع الميلادى فقد رأى المؤرخ أميانوس ماركيلينوس فى حوادث عام ٣٦٣ «أنه قد رفع إلى الإمبراطور يوليانوس كتاب من والى مصر يقول فيه إنه بعد مجهود شاق قد أمكن أن يجدوا أخيراً بعد ردح من الزمن عجل أبيس وهو أمر فيما يعتقد سكان مصر يبشر بالرخاء ووفرة المحاصيل ومختلف الخيرات » . (الكتاب ٢٢ ، ١٤ ، ٦) .

(١) موقعها الآن كوم سمعدى بالقرب من أبى قير . وكانت تشتهر بالعبث والمجون (راجع استرابون ١٧٠ ، ١ ، ١٧) وقد عرف عنها يوناليس هذا الفجور وكان يضرب بها الأمثال فقال : « عند ما هربت إيپيا زوجة عضو مجلس الشيوخ مع مصارع إلى فاروس والنيل أى إلى مدينة لاجوس الشهيرة فإن كانوبوس نفسها قد استنكرت مخازى روما وأحوالها » . القصيدة (٦ ، ٨٢ ، ٨٤)

(٢) القصيدة ١ ، ٢٢ — ٣٠

ويكرهه الدّفين له قد حملاه على مهاجمته أشد الهجوم وأعنفه غير عابئ بما قد تجره عليه هذه الجرأة من عواقب وخيمة حتى لقد ذهب البعض إلى أن كريسبينوس هذا كان مسئولا عن نفى الشاعر إلى مصر[١] .

وقد قال يهجوه وهو لا ينوى أن يكف عنه :

« هاكم كريسيپوس مرة أخرى . فلا بد لى من حق ذكره فى المحافل كثيراً . فهو وحش ليس به من فضيلة واحدة تنقذه من رذائله . وهو داعر كليل ليس فيه من قوى إلا شهواته . وزان لا يتعفف إلا عن الآنسات فحسب فماذا يجديه إذن أن تتسع ساحاته فتضنى خيله . وأن تنفسح أرجاء أحراشه التى يتريض فى ظلالها ، وأن تكثر الأفدنة والقصور التى اشتراها بالقرب من قلب المدينة ؛ ليس من شريد سعيد . وخصوصاً الداعر المتفحش الذى ضاجعته منذ عهد حديث كاهنة معصوبة الشعر[٢] قضى عليها أن ترقد تحت الثرى ولا يزال دمها يجرى فى عروقها » .

« سأتحدث الآن عن أشياء أقل خطراً . ومع ذلك فلو أن شخصاً غيره قد أتى نفس العمل لوقع تحت طائلة اللوم . ذلك أن ما يشين الرجال الفضلاء من أمثال تيتيوس وسيپوس يزين كريسپينوس وماذا عساك أن تصنع إن كان الشخص نفسه أبشع وأشنع من كل ما يقوم به ؛ لقد اشترى بوريه بستة آلاف سيسترتيوس[٣] أى ألف سيسترتيوس لكل رطل فيها كما يقول الذين يتحدثون عن الأمور الضخمة بتعابير ضخمة . ولو أنه حصل بهذه الهدية

---

(١) انظر G. Highet المصدر نفسه صفحة ٢٩ . وكان أول من نادى بهذا القول هو B. Borghesi فى كتابه Annotazione alle satire di Giovenale باريس ، ١٨٦٩ صفحات ٥١٣ – ٥١٦ .

(٢) كانت كاهنات فستا Vesta العذارى يلبسن عصابة Vitta حول شعورهن . وكن ينذرن للإلهة بكورتهن – وقد حكم على هذه الكاهنة بالدفن حية لقاء إهدارها هذا النذر .

(٣) أى حوالى ٦٠ جنيهاً .

الكبيرة على المكانة الأولى فى وصية عجوز لاولد له . أو لو أنه أرسلها — وهذا أفضل — إلى صديقة رائعة الجمال تركب محفة مغلقة ذات نوافذ عريضة . لمدحت خطته الماكرة . ولكن لا تنتظر شيئاً من هذا القبيل . فقد اشتراها لنفسه ، إنا لنشهد اليوم أشياء كثيرة لم يأتها أبداً أبيكيوس[1] النقير الشحيح . وهـــل انفقت أنت ياكريسپينوس — وقد كنت فيما مضى تأتزر ببر دى[2] وطنك — هذا المبلغ لقاء سمكة ؟ لعل السماك كان يمكن أن يشترى بأقل من ثمن السمكة . إن ضياعاً تشترى فى ولاية من الولايات بهذا المبلغ ، وتشترى أكبر منها فى أبوليا بهذا الثمن . وكيف نتصور أصناف الولائم التى كان يلتهمها الإمبراطور نفسه إذا كان كل هذا القدر من المال لا يمثل إلا جانباً ضئيلا وصنفاً واحداً على هامش مأدبة متواضعة وقد يتجشأه حلس مطيلس من أحلاس القصر العظيم هو الآن رئيس الفرسان وكان همه فيما مضى أن ينادى بأعلى صوته على قراميط بلده الفاسدة »[3] .

وهو يصفه فى حضرة الإمبراطور فيقول : « وكان حاضراً أيضاً كريسبينوس ، وبالرغم من أن الوقت كان الصباح المبكر فقد كان يفوح برائحة لا تكاد تفوح بمثلها جنازتان »[4] .

ولو أن الأمر اقتصر على هجاء كريسبينوس هذا لسهل تعليله بأن العداوة استعرت بينه وبين الشاعر لخصومة كانت بينهما . أو ليأس الشاعر من خير رجاه على يديه . ولكن يوناليس لايكاد يسمع بمصرى أو بمن له صلة بمصر حتى يشحذ للهجو لسانه فى مرارة وحقد . كان يسير فى السوق forum يوماً فرأى تمثال طيبريوس يوليوس الكسندر وقد كان والياً على مصر من سنة ٦٧

---

(١) عاش أبيكوس فى عهد الإمبراطورين أغسطس وطيبريوس وكان يشتهر بالفهم والولع بأطياب الموائد (راجع سنيكا الرسالة ٩٥) .

(٢) قال بلنيوس فى حديثه عن البردى (١٣ ، ٢٢) كان المصريون يصنعون من لبابه الشراع والحصير كما كانوا يصنعون منه الملابس .

(٣) القصيدة ٤ ، ١ — ٣٣ .

(٤) سنة ٤ ، ١٠٨ — ١٠٩

إلى سنة ٧٠[١] . وكان الرجل يهودياً لا يمت لمصر إلا بأوهى الصلات ومع ذلك فقد تعرض لهجو الشاعر إذ يقول : « ثم بلغنا تماثيل النصر التى تجرأ أحد المصريين من حكام الصحراء الشرقية[٢] لاأدرى له اسماً فوضع بينها ألقابه . وحلال بالقرب من تمثاله ألا يقتصر الناس على التبول »[٣] .

هذا مبلغ كرهه لرجلين يمتان لمصر ببعض الصلة . أما كرهه للشعب المصرى فقد تجلى فى أوضح صورة فى قصيدته الهجائية الخامسة عشر وقد جاء فيها ١ — ١٣ « من يجهل ياولوسيوس البيثينى ضروب المسوخ التى تقدسها مصر المفتونة[٤] . فهذه المنطقة تعبد التمساح[٥] وتلك تقدس الأبيس المتخوم بالثعابين[٦] وفى المنطقة التى تدوى فيها الأوتار السحرية من ممنون

---

(١) انظر كتاب "A History of Egypt under Roman Rule" J. G. Milne الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٤ صفحات ٢٢ — ٢٩

(٢) لقد أثبت M. Rostowzew فى "Römische Mitteilungen" أن لقب « حاكم العرب » Arabarches حاكم المنطقة التى تسمى فى مصر بلاد العرب .

(٣) القصيدة ١ ، ٣٠ — ٣١ .

(٤) لقد كان تقديس المصريين لبعض الحيوانات موضوعاً أثيراً لدى الكثيرين من الكتاب القدماء . انظر هيرودوت ٢ ، ٦٥ — ٧٦ . ويودور الصقلى ١ ، ١١ — ٢٦ ، ٨٣ — ٩٠ ، استرابون ١٧ ، ١ ، ٣٨ ، ٤١ وباوتارخوس « إيزيس وأوزيريس» ٧١—٧٥ ، وماكسيموس الصورى ٨ ، ٥ .

(٥) يعنى الإله « سبك » وكان يعبد فى كروكوديلوپوليس أى مدينة الفيوم الآن

(٦) الأبيس يمثل الإله تحوت وقد كان مقدساً فى هرموبوليس الكبرى أى الأشمونين وهرموبوليس الصغرى أى دمنهور . وقال هيرودوت ٢ ، ٧٥» وتذهب الرواية إلى أن الحيات المجنحة تطير فى الربيع من بلاد العرب صوب مصر ولكن الطائر أبا منجل (الأبيس) لا يدعها فى طريقها بل يبيدها . ويقول الأعراب إنه من أجل هذه الخدمة يقدس أبو منجل عند المصريين تقديساً عظيما . ويوافق المصريون على أنهم يقدسون هذه الطيور من أجل هذه الخدمات » . ويقول بلينيوس ١٠ ، ٧٥ ويستعيذ المصريون بالأبيس ضد هجمات الثعابين » . وقال كيكرو فى كتابه « فى طبيعة الآلهة » ١ ، ٣٦ « فالمصريون وهم مثار السخرية لا يقدسون الحيوان إلا لفائدة يجنونها منه . فالأبيس (أبو منجل) وهو طائر كبير ذو سيقان قوية ومنقار طويل صلب يهلك عدداً كبيراً من الحيات . فهذه الطيور إذن تحمى مصر من الأمراض الوبائية بقتلها والتهامها للحيات الطائرة التى تجلبها الرياح الجنوبية الغربية من صحراء ليبيا . وهكذا تجنب مصر ويلات لدغاتها وهى حية وشر العدوى عند مماتها » . وقال أميانوس ماركيلينوس ٢٢ ، ١٥ ، ٢٥ » : =

المصدوع[1] وحيث تقع طيبة القديمة المتداعية بأبوابها المائة[2] يتلألأ التمثال الذهبي للنسناس[3] . هنا يعبدون القطط [4] وهنا سمك النيل [5] . وهناك

=« ومن الطيور المصرية الأبيس وهو مقدس وأليف ومحبوب لأنه ينقل بعض الحيات إلى أعشاشه ليتخذها طعاماً له ، فيكون بذلك سبباً في هلاك هذه اللعنات المميته وندرتها . وهذه الطيور أيضاً تصطرع مع جحافل الحيات المجنحة ، التي تأتي من مستنقعات بلاد العرب وتنتج سموماً خبيثة . وتهزمها في معارك جوية وتلتهمها قبل أن تغادر حدود بلادها » .

(١) في الأساطير اليونانية أن أن ممنون ابن تيثونوس وإلهة الفجر . وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثالي أمنحتب الثالث وزوجه الليبية تي . وأول من وصف ظاهرة صدور الأنغام عن التمثال هو : استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٦ حيث قال « ويوجد هنا تمثالان ضخمان متجاوران كل منهما من حجر واحد . أحدهما سالم أما الآخر فقد تهدم من القاعدة إلى الأجزاء العليا على إثر حدوث زلزال فيما يقولون . والمعتقد أنه يصدر مرة كل يوم صوتاً كأنه صفير خافت من ذلك الجزء من التمثال الذي بقي على العرش ومن القاعدة . وعند ما كنت حاضراً في هذه البقاع مع ايليوس جاللوس وجمهور حاشيته من الأصدقاء والجند ، (سنة ٢٥ ق) سمعت أنا نفس الصوت حوالى الساعة الأولى (الأولى من شروق الشمس أي السادسة صباحاً) ولكني لست بقادر أن أجزم فيما إذا كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم قد أطلقه أحد الذين كانوا واقفين في دائرة بالقرب من القاعدة . ذلك أني أميل — لخفاء العلة — إلى تصديق أي شيء إلا أن يكون الصوت صادراً من الحجارة المصفوفة على هذا النحو » . ولما زار الإمبراطور سيفيروس مصر سنة ١٩٦ ب . م . أمر بترميم التمثال فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك التاريخ .

(٢) كانت طيبة وموقعها الآن الأقصر تعرف بذات المائة باب فقد قال هوميروس « الالياذة » (٩ ، ٣٨٣) طيبة ذات المائة باب ، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم » .

وقد زارها استرابون سنة ٢٥ ق . م فقال (١٧ . ١ . ٤٢) وترى إلى الآن آثار عظمتها ممتدة مسافة ثمانين أستاد طولا وتوجد بها معابد عديدة وقد خرب قمبيز أكثرها . والمدينة الآن مجموعة من القرى » .

(٣) **Cercopithecus** ؛ جاء في معجم الحيوان للفريق أمين المعلوف أنه الهجرس وهو قرد صغير طويل الذنب يعرف عند عامة المصريين بالنسناس . وكان يرمز للإله تحوت ويقدس من الأشمونين .

(٤) القط يرمز للإلهة باست وكانت تعبد في بوباسطين وموقعها الآن الزقازيق . قال هيرودوت (٢ ، ٦٧) « وتنقل القطط بعد موتها إلى مقاصير مقدسة في مدينة بوباسطيس حيث تحفظ وتدفن » . وقال ديودور الصقلي (١ ، ٨٣) ومن يقتل عامداً أحد الحيوانات المقدسة يلاق الموت ، أما من يقتل قطاً أو أبا منجل (أبيس) فسواء قتلها عامداً أو غير عامد فالموت نصيبه على كل حال .

(٥) قال هيرودوت (٢ ، ٧٢) « ويعتبر مقدساً من الأسماك ، النوع الذي يسمى بالشبوط وثعبان الماء وهذان النوعان من الأسماك مقدسان فيما يقولون للنيل » . وقال استرابون (١٧ ، =

القرى كلها تعبد الكلب[١] . ما من أحد يعبد ديانا[٢] . وحرام أن يدنس الكرات والبصل[٣] وأن يقضم بالأسنان . يا له من شعب قدسي تنمو عنده هذه الآلهة فى حدائقه ؟ إن الموائد كلها تعزف عن ذى الوبر[٤] من الحيوان ، ومن الحرام هناك ذبح صغار الجداء[٥] . ومع ذلك فمن الحلال أكل اللحم البشرى[٦] .

= ١ ، ٤٠ ،) ويوجد على الضفة المقابلة من النيل مدينة أوكسيرنخوس = أى مدينة القنومة (هى البهنسة الآن) وإقليم بهذا الاسم . وهناك يعظمون القنومة ويوجد عندهم معبد للقنومة مع أن سائر المصريين يشتركون فى تعظيمها .... وأهل إقليم لاطوپوليس (هى إسنا الآن) يعظمون اللوطوس وهو نوع من السمك فى النيل » .

(١) كان الكلب مقدساً للإله ست . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « مدينة لينوپوليس أى مدينة الكلب (وموقعها الآن الشيخ فضل فى مواجهة بنى مزار حيث يعظم أنوبيس وحيث تقام مأدبة مقدسة للكلاب » . ويقول ديودور الصقلى ١ ، ٨٧ « يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس ... « إن كافة المصريين يشتركون فى تعظيم بعض الحيوانات كالثور والكلب والقط »

(٢) الإلهة Diana تقابل عند اليونان أرتميس وقال هيرودوت ٢ ، ١٣٧ « والإلهة بوباسطيس هى فى اللغة اليونانية أرتميس »

(٣) قال بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » (٨) « ولكن الكهنة يعزفون عن البصل ويكرهونه ويتعمدون أن يتجنبوه » . وقال بلينيوس (١٩ ، ٣٣) « والمصريون يعدون الثوم والبصل بين الآلهة عند الحلف » . هذا عن البصل أما الكرات فلم يرد ما يشير إلى تقديسه فى غير هذا الموضع .

(٤) يعنى الكبش وهو مقدس لخنوم . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « أهل سايس (صا الحجر) يعظمون الكبش وكذلك أهل طيبة « الأقصر » وقال هيرودوت (٢ ، ٤٢) « ولا يضحى أهل طيبة بالكباش فهى عندهم مقدسة » .

(٥) يقول استرابون (١٧ ، ١ ، ١٩) منديس (تل الربع فى الجنوب الشرقى من المنصورة) حيث يعبدون بان » ويقول هيرودوت (٢ ، ٤٦) « يقدس أهل منديس الماعز ولكن الذكور منها أكثر من الإناث ورعاة الذكور يحظون بتعظيم أكثر من رعاة الأناث ، ويقدس واحد من الذكور بوجه خاص ، فإذا مات يعم الحداد العظيم كل إقليم منديس وفى مصر يسمى الماعز وبان كلا هما بمنديس» .

(٦) لقد أنكر هيرودوت مجرد التضحية بالإنسان فتساءل (٢ ، ٤٥) « كيف يجوز لقوم لا تحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهراً والأوز ، أن يضحوا بآدميين ؟ » ومع ذلك فقد قال ديودور الصقلى (١ ، ٨٤) « يحكى أن القحط هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً ولكن أحداً منهم لم يتهم -مجرد تهمة- بتناول أى الحيوانات المقدسة » .

ثم يقول (٢٦ – ٨٣) بعد استطراد قصير « سأروى الآن قصة عجيبة وقعت حديثاً فى عهد قنصلية يونكوس [١] خارج أسوار قفط المحرقة . سأروى خبر جريمة ارتكبها الشعب كله هى أبشع من كل ما فى المآسى المسرحية من جرائم . فإن أنت استعرضت كل الجرائم فى المآسى المسرحية فلن تجد بين كتاب المآسى من جعل الشعب هو المجرم . واسمع أى جريمة أتت بها الهمجية العارمة فى عصرنا هذا .

إن العداء القديم المتأصل والكره الأبدى الذى لا تندمل جراحه أبداً لا يزال إلى الآن متأججاً بين المدينتين المتجاورتين أمبى [٢] وتنتيرا[٣] . فالحنق فى كليهما عظيم شامل لأن كل منطقة منهما تمقت آلهة جيرانها[٤] . لأنها تؤمن أن الآلهة الوحيدة التى يجوز أن تعد آلهة هى الآلهة التى تعبدها هى

---

(١) كان يونكوس قنصلا سنة ١٢٧ ب . م .

(٢) كان المعتقد قديماً أن أمبى هى كوم أمبو ولعل ما حدا بالعلماء إلى هذا الرأى ما اكتشف فى كوم أمبو من جبانات شاسعة للتماسيح المحنطة . راجع Moset (المصدر نفسه) صفحة ٣٦٥ . وحيث أن كوم أمبو « تبعد عن مدينة تنتيرا وهى دندرة الحالية بمسافة تزيد عن ١٢٠ ميلا فقد شك فى صحة وصف المعركة لأن كوم أمبو على الجانب الأيمن من النيل فى حين أن دندرة على الجانب الأيسر منه ، ثم إن واحدة منهما فقط إلى الشمال من قفط . وإذن فلا يمكن أن تقوم بينهما معركة على الإطلاق .

وقد ذهب العلماء بصدد هذا الشك مذهبين فأما الأول فقد أنكر صحة نسبة القصيدة الخامسة عشرة برمتها إلى يوناليس (راجع C. Kempf فى كتابه De Satira quinta decima quae sub Juvenalis nomine circumfertur ، برلين سنة ١٨٤٣) وأما الثانى فقد أنكر أن يوناليس زار مصر (راجع Duff. المصدر نفسه ص . ٦٠٢ هامش (١) .

ولكن J.Dūmichen أخرج سنة ١٨٧٩ فى برلين كتابه فى تاريخ مصر القديمة Geschichte des Alten Agyptens وبرهن فيه (صفحة ١٢٥ – ١٢٦) على أن أمبو هى مدينة نبط المتاخمة لدندرة . وفى سنة ١٨٩٥ قام J.E. Quibell, W. M. F. Petrie بالحفائر فى هذه المنطقة وأخرجا سنة ١٨٩٦ كتابهما Naqada and Ballas وأثبتا فيـــه أن أمبى هى نبط بما لا يدع مجالا لشك (انظر صفحات ٦٥ – ٧٠) .

(٣) موقعها الآن دندرة وكان اسمها فى العصر اليونانى الرومانى أفروديتوبوليس أى مدينة هاتور .

(٤) كان الإله ست يعبد فى أمبى ويقول Moret (المصدر نفسه ص . ٦٨) إن نبط كانت أقدم مراكز عبادة الإله ست ومعقل أتباعه السياسى . وهى بالقرب من نقادة وبلاص على الضفة الغربية من النهر فى مواجهة قفط . وكان ست يصدر على شكل تمساح . أما دندرة =

نفسها وقد حدث فى فترة العيد عند أحد هذين الفريقين أن بدا لأعيان خصومهم وقادتهم كلهم أنه لابد من انتهاز هذه الفرصة حتى لا يتمتع أعداؤهم بيوم فرح وحبور . ولا بلذة العشاء الفاخر إذ تمد الموائد أمام المعابد وفى مفترق الطرق ويسهرون على الأرائك تمد بالليل والنهار إلى أن تطلع عليها شمس اليوم السابع(١) . إن مصر ولاشك عاتية ولكن شعبها الهمجى لا يختلف فى الترف كما لاحظت بنفسى حتى عن كانوبوس الشهيرة(٢) . أضف إلى هذا

= فقد كانت مركزاً من مراكز عبادة الإلهة هاتور . وقد قام الإمبراطور دوميتيانوس ببناء بوابتين لمعبدها فى دندرة سنة ٨٨ . وكان أهل دندرة يشتهرون بكراهيتهم للتماسيح قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) «وفى مدينة تنتيرا على عكس الأمر عند سائر المصريين لا يعظم التمساح بل يعد أبغض الحيوانات كلها . ذلك أنه بالرغم من أن سائر المصريين يعرفون ضراوة الحيوان ومبلغ فتكه بالجنس الإنسانى فإنهم مع ذلك يقدسونه ولا يؤذونه ، فى حين أن أهل تنتيرا يتعقبونها ويقتلونها بكافة الطرق . ويقول البعض إنه كما يوجد نوع من النفور الطبيعى بين البسليين بالقرب من فوريئة وبين الزواحف ، فكذلك الحال بين أهل تنتيرا والتماسيح حتى إنهم لا يصيبهم منها ضر . بل إنهم يغطسون فى نهر بلا خوف ويعبرونه فى حين لا يجرؤ أحد غيرهم على ذلك ... وهم يعبدون أفروديتى» . وقال بلينيوس (٨ ، ٣٦) « إن فئة من الناس تدعى أهل دندرة من اسم الجزيرة التى يسكنونها فى النيل ذاته تعادى التماسيح ... وهؤلاء وحدهم هم الذين يجرؤون على مهاجمته فهم يسبحون فى النهر ويعتلون ظهره كما لو كانوا يمتطون صهوة جواد ، وعند ما يفغر فاه ويميل برأسه للوراء للعض يدخلون فى فيه عصا ويمسكون بطرفيها باليمين والشمال ويسوقون أسيرهم إلى الشط كما لو كانوا ممسكين بأعنة . وهم يخيفون التماسيح بمجرد الصراخ حتى يضطرونها لقىء ما التهمت من جثث حديثة لدفنها . ولذلك فإن التماسيح لا تقرب هذه الجزيرة وحدها كما أن رائحة هذا القبيل من الناس تذودها كما تذود رائحة البسليين الحيات » .

(١) لقد أورد F. Petrie فى كتابه Dendereh ، لندن ١٩٠٠ ص ٥٧٠ — ٥٩ . وصفاً دقيقاً لولائم كبرى كانت تقام فى دندرة . أما أن المصريين كانوا يولمون خارج البيوت فظاهر من قول هيرودوت (٢ ، ٣٥) « وهم يأكلون خارج بيوتهم فى الطرقات » . ومن قول ميلا (١ ، ٥٧) « إنهم يتناولون طعامهم علناً خارج بيوتهم » أما عن عدد أيام العيد فيقول أميانوس ماركيلينوس (٢٢ ، ١٥ ، ١٧) « وبالرغم من أن التماسيح ضارية على الدوام ، فإنها تنبذ ضراوتها وتهدأ كأنها عقدت هدنة عسكرية طوال أيام العيد السبعة التى يحتفل فيها كهنة منف بميلاد النيل » .

(٢) راجع الهامش (١) ص ١٦ .

أن الانتصار سهل على قوم مخمورين يترنحون فى شرابهم[١] . ففى ناحية قام نفر يرقصون على أنغام زمّار[٢]اسمر وقد تعطروا بما اتفق من عطور ، وكللوا جباههم بأكاليل من مختلف الورود . وفى الناحية الأخرى كان الحقد ضاريا . وقد بدأ السباب يدوى أولا ، وهو بمثابة نفير الاشتباك لنفوسهم الملتهبة . وعندئذ التحموا وقد تعادل الصراخ فى الجبهتين وصالت الأيدى العزل بدلا من السلاح ، فقل من الأصداغ ما نجت من الجراح . ولم تخرج ألف واحدة سالمة من كل هذا الشجار . ويمكنك أن ترى الوجوه مشدوخة الآن فى الجبهتين جميعاً ، وقد تغيرت الآن سماتها وبرزت العظام من الأصداغ المشجوجة ، كما ترى قبضات أيديهم وقد تلطخت بالدماء التى سالت من العيون . ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلعب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطأونها . ولا غرو فما جدوى الدهماء فى كل هذه الآلاف من المتشاجرين ، إذا كانوا كلهم سيعيشون ؟ ومن ثم اشتد الهجوم أكثر من ذى قبل فقد فتشوا الأرض عن الحجارة[٣] وهى أسلحتهم الوطنية فى الفتن وأخذوا يطوحون بها بأذرعتهم . وهى ليست كالحجارة التى

---

(١) يقول هيرودوت (٢ ، ٧٧) « إن المصريين يتعاطون خمراً مستخرجة من الشعير إذ لا يوجد فى بلادهم كروم » . وقال بلينيوس (١٤ ، ٩) إن النبيذ السبينيّ (السمنودى) ينتج فى مصر وهو يصنع من ثلاثة أنواع شهيرة من العنب تنمو فيها » . وتحدث (١٤ ، ١٩) عن خمر البلح وفى (١٤ ، ٣٩) عن خمر الشعير .

(٢) قال هيرودوت (٢ ، ٢٨) فى وصف عيد ديونيسوس « ويتقدم الزمار الموكب » وقال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) وفى أبيدوس يقدسون أوزيريس ، ولا يسمح فى معبد أوزيريس لمغن أو لنافخ ناى أو عازف قيثار أن يستهل الشعائر كما هى العادة فى سائر طقوس الآلهة » .

(٣) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لقد صمد بترونيوس وليس معه إلا حرسه من الجند عند ما هاجمه جمع لا يحصى من السكندريين بوابل من الحجارة » .



المرحوم الدكتور وهيب كامل

كان يقذف بها تورنوس[١]أو أياس[٢] أو كالتي ضرب بها ابن تيديوس[٣] أينياس على حقوه ولكنها تليق بأن تطلقها أيدى لا تشبه أيديهم فهى مولودة فى عصرنا هذا . ذلك أن الجنس الإنسانى بدأ حتى فى عصر هوميروس يذوى فالأرض الآن تخرج رجالا أشقياء ضعاف[٤] ولذلك فإن كل إله يرمقهم يسخر منهم ويمقتهم » .

« ولنعد الآن من هذا الاستطراد إلى قصتنا : فبعد أن ازدادوا بالمدد تجاسرت فئة منهم فاستلت السيوف وبدأت المعركة من جديد بالسهام الخطرة . فما كان من سكان تنيترا المجاورة ذات أحراش النخيل الظليلة إلا أن لاذوا بالفرار مهرولين أمام هجوم أهل أومبى . وكان الرعب الشديد قد استبد بواحد منهم فأسرع فى الجرى فعثر وقبض عليه . وما كان من الفئة المنتصرة إلا أن مزقته إرباً وأجزاء كثيرة حتى يكفى قتيل واحد الكثيرين . والتهمته كله ونهشت عظامه . ولم ينضج بالسلق فى أوانٍ ولم يشو على السفافيد فقد رأوا أن انتظار إنضاج النار سيكون طويلا وثقيلا فرضوا بالجثة نيئةً .

وهو لا يلتمس للشعب عذراً فيما وصف فهو يقول (١١٩ — ١٢٨) ولكن ما الخطب الذى دفع هؤلاء إلى هذا ؟ أى مجاعة طاحنة هصرتهم أو أى أسلحة مبيدة حصرتهم فاضطرتهم إلى الاجتراء على مثل هذا الإثم المشنوء ؟

---

(١) تورنوس فى « الانيادة » لفرجيليوس هو ملك الروتوليين وقد قاوم غزو الطرواديين أشد مقاومة والإشارة إلى ١٢ ، ٨٩٦ — ٩٠١ .

(٢) أياس ابن تيلامون قائد السالاميين فى حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٧ ، ١٨ م ، ٢٦٩ ، ١٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣

(٣) ابن تيديوس هو ديوميديس وهو قائد أهل أرجوس فى حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٥ ، ٣٠٢ — ٣٠٥

(٤) كان اليونان ، والرومان من بعدهم ، يؤمنون بنكسة الجنس الإنسانى وبأن العصر الذهبى كان أسبق العصور ثم تلاه العصر الفضى ثم البرونزى ثم عصر الأبطال وهو العصر الذى يمثله شعر هوميروس ثم أخيراً العصر الحديدى وهو أسوأ وأحط العصور كلها .

فلو أن أرض منفيس جفت فهل كان فى وسعهم أن يأتوا أكثر من هذا كيداً فى النيل الذى أبى أن يفيض ؟

لا السمبريون[١] والبريطانيون المرعبون[٢] ولا السرماتيون[٣] العتاة ولا الأجاثيرسيون[٤] المخبولون قد هاجوا مثل هياج هذا الشعب الخانع[٥] التافه الذى كان همه من قبل أن يضع أشرعة صغيرة على قوارب من الخزف وأن يزود الزوارق الفخارية الملونة بمجاديف صغيرة[٦] .

ونلاحظ أولا أن القصيدة تفيض بالكراهية للمصريين . حقاً إن يوناليس كان يكره الأجانب عموماً من يونانيين[٧] ويهود[٨] وكلدانيين[٩] إلا أن كرهه هؤلاء لا يبلغ مبلغ الحقد العارم الذى جعله يقف هذه القصيدة برمتها على هجاء مصر وأهلها . وإن هذا الحقد قد أعماه عن شيئين . أعماه عما كان يجرى فى سائر البلاد من مخاز لم يذكر منها واحدة . كما أعماه عما كان يدور فى روما نفسها فى « حلبات المصارعة » حيث كان الإنسان يتصدى للحيوان كما كان يتصدى لأخيه الإنسان ولا يخرج من حلبة المصارعة إلا قاتلا أو مقتولا .

---

(١) السمبريون Cimbri شعب سلتى اتحد بالتيوتون وانحدروا جنوباً فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وهزموا الرومان مرات عديدة كان آخرها سنة ١٠٥ ق . م ولكنهم لحسن حظ الرومان لم يعبروا جبال الألب فيغزوا روما وإنما ساروا إلى أسبانيا . ولما رجعوا كان الرومان قد استعدوا لهم فهزموهم سنة ١٠٢ ، ١٠١ ق . م ولخوف الرومان منهم ضربوا بهم المثل فى القسوة .

(٢) وصفهم هواتيوس فى الأغانى (٣ ، ٤ ، ٣٣) « بأنهم قساة على الأجانب » .

(٣) هم سكان شرق روسيا وبولندا

(٤) وصفهم هيرودوت (٤٠ ، ١٠٠) بأنهم سكان ترانسلفانيا .

(٥) قال استرابون(١٧ ، ١ ، ٥٣) « لا المصريون أنفسهم محبون للحرب ، مع أنهم كثر ، ولا القبائل المجاورة » .

(٦) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤١) « إن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار » .

(٧) انظر ٣ ، ٦١ ، ١١ ، ١٠٠ ، ١٣ ، ١٢١ .

(٨) انظر ١٤ ، ٩٧

(٩) انظر ٦ ، ٥٥٣ .

كل ذلك والناس من حولهم يتلذذون بما يشاهدون ويزجون فراغ يوم العطلة . وكانت فى يوناليس حسنة لا تنكر هى كرهه للاستعمار واستغلال المحكومين . قال يخاطب والياً . « وعند ما تدخل آخر الأمر الولاية التى كنت تحلم مدة طويلة أن تكون حاكماً لها ، فضع لجاماً واحداً لنزقك . وضع حداً أيضاً لجشعك وارثِ لحال أهل الولاية المعدمين . فإنك لترى عظامهم قد جفت وخلت من نخاعها ، واحترم ما تأمر به القوانين ، وما يوصى به مجلس الشيوخ[1] . ولما طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس بريسكوس واتهمته بالرشوة وسوء الإدارة ، وأدين ونفى ؛ كتب يوناليس معلناً عطفه على الولاية وأهلها يقول « إن ماريوس فى منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ويرتع فى غضب السماء . أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين[2] » . وكانت مصر ولاية رومانية يغتصب قمحها وتستنزف مواردها ؛ وتئن تحت وطأة الاحتلال الرومانى الغاشم ولكنها لم تحظ من يوناليس مع معرفته بأحوالها بكلمة رثاء أو عطف واحدة . مما يرجح كرهه للبلاد وتحامله فى وصف أهلها .

ونلاحظ ثانياً أنه يهاجم الديانة المصرية هجوماً لا ينم عن كرهه لها ولمعتنقيها فحسب ؛ بل ينم عن خوفه وقلقه من تغلغلها فى المجتمع الرومانى[3] وتقويضها دعائم الديانة الرومانية . فهو يتهكم بها أشد التهكم ويقذع فى هجاء كهنتها أفحش الإقذاع ويندد بمعتنقيها من الرومان تنديداً كله مرارة وتثريب . قال يتهكم بامرأة تقية ٦ ، ٥٢٦ ــ ٥٤١ « إما ما أمرتها أيو[4] البيضاء فسوف تذهب إلى

---

(١) انظر ٨ ، ٨٧ – ٩١

(٢) راجع هامش (١) ص ٩

(٣) راجع « عبادة إيزيس فى إيطاليا » The Cult of Isis in Italy للدكتور محمد سليم سالم « رسالة » ليفربول سنة ١٩٣٧ .

(٤) هى ابنة إيناخوس ملك أرجوس أثار جمالها إعجاب زيوس وحفيظة هيرا ، فسختها بقرة . وللأسطورة أصول فى الأساطير المصرية القديمة . وهى هنا تعبير عن إيزيس .

حدود مصر وتحضر مياه مستقاة من مروى[١] الحارة لترشها على معبد إيزيس الذى يقوم بالقرب من الميدان الحربى لأنها تؤمن أن الأمر قد صدر إليها بصوت الآلهة نفسها . يا له من عقل وقلب تتحدث إليه الآلهة بالليل ! ولذلك فإن المرتبة الأولى والعليا لتولى لأنوبيس[٢] الذى تحيط به طائفة لابسى الكتان[٣] حليقى الرءوس[٤] . وهو[٥] يسخر من الباكين وهو يجرى . وأنوبيس هو الذى يحصل لها على الصفح إذا لم تمتنع زوجة عن الجماع فى الأيام التى ينبغى أن ترعى قداستها . وهو الذى يقتص قصاصاً كبيراً إذ ما تدنس فراش الزوجية أو إذا رئى الثعبان الفضى يحرك رأسه . وإن دموعه وهمساته المدروسة لتدل على أن أوزيريس سوف لا يأبى الصفح عن الجرم . وذلك طبعاً بعد أن يرشى بأوزة سمينة وشطيرة من كعكة التضحية . « والحق أن إيزيس قد غزت قلوب أهل روما فامتلأت معابدها هناك بالنذور وقد رأى يوناليس فى النذور الذى ملأت معابد روما شاهداً على أن « إيزيس هى التى تقيم أود مصورينا »[٦]

---

(١) لقد أثبتت الحفائر التى قام بها جارستانج وسايس وجريفيث وأخرجوا نتائجها فى كتابهم **Meroe** ، لندن سنة ١٩١١ ؛ أن معبد إيزيس فى مروى كان يحتوى على أدوات للطهور من العصر اليونانى الرومانى . مما يؤكد أن بعض عباد إيزيس كانوا فعلا يزورون معبدها هناك . راجع **G. Highet** المصدر نفسه صفحة ٥٤٢ — ٣٤٣

(٢) فى الديانة المصرية القديمة هو حادى الموتى وكان يصور برأس كلب وقد عاون إيزيس فى البحث عن جثة أوزيريس ومن هنا كان دائماً فى ركابها .

(٣) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) إن ملابس الكهنة المصريين من الكتان .

(٤) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) « ويحلق الكهنة كل أجسامهم كل يومين » .

(٥) أى الكاهن الذى يمثل أنوبيس فيلبس قناعاً يصور كلباً يجرى . والباكون هم الذين يحددون على موت أوزيريس . قال هيرودوت (٣ ، ٦١) يصف العيد فى مدينة بوسيريس « يضرب الرجال والنساء جميعاً صدورهم وهم آلاف كثيرة جداً من الناس ، وليس لى أن أذكر على من يحددون » .

(٦) انظر القصيدة ١٢ ، ٢٤ — ٢٨

وقد حاول أن يحطم نفوذ إيزيس فى روما فصور معابدها مباءات للخنا والفجور فإذا إزينت غادة فلأن عشيقها ينتظرها فى إحدى الحدائق أو بالقرب من محراب « إيزيس القوادة »(١). وإذا تعرض أحد أتباعها للغواية فليس فى عبادتها عاصم « ومن الناس من يخشى أن يكون العقاب فى إثر الجريمة ، وهو يؤمن بالآلهة ولكنه مع ذلك يأثم ويجادل نفسه على هذا النحو . لتتصرف إيزيس ببدنى كما تشاء ولتطح ببصرى بناقوسها Sistrum المرعد ما دمت حتى بعد فقدان بصرى أحتفظ بالأموال التى خنت الأمانة فيها »(٢) .

والحق أن الديانة المصرية كانت تجد فى روما مرتعاً خصيباً وكان نفوذها يتزايد فيها إلى حد يزعج أهل الفكر من الرومان ، فكانوا يشنون على مصر ودياناتها حملة من الدعاية تخفف من نفوذها إلى حين . وقد حدث هذا بشكل واضح مرتين ، أولاهما بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م والثانية بعد زيارة الإمبراطور هادريان لمصر سنة ١٣٠ ب . م .

فقد كان من تأثير كليوباترة على قيصر وزيارتها لروما ودعايتها لمصر أن انتشرت عبادة إيزيس فى روما إلى حد اضطر معه « الحكم الثلاثى » أن يقيم معبداً لإيزيس فى روما سنة ٤٢ ق . م استرضاء للجماهير واجتذاباً لعطفهم(٣) وتفشت عبادتها فى روما حتى أن كهنتها ومريداتها برزن فى أدب العصر الأغسطى(٤) فلما كانت موقعة اكتيوم نفيت إيزيس خارج أسوار روما(٥) ، وشنت حملة للدعاية ضد مصر ودياناتها(٦) . وكانت السياسة العامة هى محاربة

(١) انظر القصيدة ٦ ، ٤٨٧ — ٤٩١

(٢) « « ١٣ ، ٩٠ — ٩٤ .

(٣) راجع ديوكاسيوس ٤٣ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ١٥

(٤) راجع كاتولوس ١٠ ، ٢٦ وتيبولوس ١ ، ٣ ، ٢٣ وبروبرتيوس ١١ ، ٣٣

(٥) راجع ديوكاسيوس ٥٣ ، ٢

(٦) راجع فرجيليوس « الإنيادة » ٨ ، ٦٨٥ — ٧١٣ وهوراس الألمانى ١ ، ٣٧ ، ٤ ، ٩ وبرو برتيوس ٣ ، ١١ ، ٢٩ — ٥٨ وأوفيديوس « التناسخيات » ١٥ ، ٨٢٦ — ٨ ولوكانوس « فارساليا » ٨ ، ٥٤١ — ٥٥٠ .

نفوذ الديانة المصرية فى روما ، طوال حكم الأمبراطورين أغسطس وطيبريوس[1] حرباً فترت فى عهد الإمبراطورين كاليجولا وكلوديوس . فلما جاء نيرون عاد نفوذ الديانة المصرية من جديد[2] . وكان الإمبراطور أوتو (سنة ٦٩ م) أول من اشترك فعلا فى إقامة الشعائر المصرية من الأباطرة [3] . واتخذ الإمبراطور فسباسيانوس (٦٩ — ٧٩ م) متهجداً خاصاً فى معبد سيرابيس[4] وكانت عبادة إيزيس أثناء الصراع العنيف الذى قام سنة ٦٩ م نشطة حتى أن دوميتيانوس استخفى فى زى أحد كهنتها[5] وقد رد إليها هذا الصنيع بأن أعاد بناء معبدها فى الميدان الحربى سنة ٩٢ م على نطاق واسع[6] . أمّا الإمبراطور هادريانوس فقد أولع بمصر وديانتها وآثارها فأطال فيها إقامته واختلط بعلماء المتحف فى الإسكندرية وأقام فى قصره فى تيبور (تيفولى) جناحاً مصرياً سماه كالإيوس كانت الروائع الفنية التى اشتمل عليها مزيجاً من الفن المصرى الخالص والفن الرومانى[7] . وتتبع الناس فى روما هوى الإمبراطور وأصبح الحديث عن مصر والأخذ بتراثها زى العصر الشائع فى روما حتى لقد بلغ عند بعض الناس مبلغ الهوس ، فصار لمنجميها وعرافيها

---

(١) راجع ديوكاسيوس ٥٤ ، ٦ ، ٦ ، وتاكيتوس « الحوليات » ٢ ، ٨٥ ، وسينيكا « الرسائل » ١٠٨ ، ٢٢ وسيوتونيوس « حياة طيبريوس ٣٦ .

(٢) راجع تاكيتوس « الحوليات » ١٥ ، ٣٦ وسيوتونيوس « حياة نيرون » ٤٠ ، ٤٧

(٣) راجع سيوتونيوس « حياة أوتو» ١٢ .

(٤) راجع سيوتونيوس « حياة ڤسپاسيانوس » ٤ ، ٥ ، ٧ وتاكيتوس « التاريخ » ٤ ، ٨١

(٥) راجع تاكيتوس « التاريخ » ٣ ، ٧٤ وسيوتونيوس « حياة دوميتيانوس » ١

(٦) لقد حضر تيتوس **Titus** حفل تنصيب العجل أبيس فى مصر . راجع سيوتونيوس « حياة تيتوس » .

(٧) راجع **"Hadrian's Villa at Tivoli"** لتوماس أشبى **Thomas Ashby** فى كتاب : **Wondess of The Pest** (نشرة **J.A. Hammeston** سنة ١٩٣٨) الجزء الثالث ص ٩٣٧ — ٩٤٧ .

مكانة ملحوظة فى المجتمع الرومانى[١] . وكانت النساء فى روما يستشرن المنجم المصرى پتوزيرس قبل الإقدام على عمل من الأعمال[٢] . فلا غرو أن ينبرى شاعرنا ليناهض هذا النفوذ الأجنبي الذى يجتاح روما ويكاد يقضى على تقاليدها الدينية والاجتماعية . ولا جناح علينا إذا نظرنا إلى قصيدته الخامسة عشر كلها أعلى أنها ضرب من ضروب الدعاية ضد مصر وديانتها .

ونلاحظ ثالثاً أن يوناليس لم يكن فى مصر وقت حدوث المعركة التى وصفها . فهو يقول إنها حدثت فى عهد قنصلية يونكوس أى فى سنة ١٢٧ م . وفى هذه السنة عينها كان الشاعر فى روما وقد كتب يداعب صديقه الذى وقع فريسة لمحتال يقول « لقد جاوزت السنين إذ ولدت فى عهد قنصلية فونتيوس[٣] . وقد كان فونتيوس كاپيتو قنصلا سنة ٦٧ م . فلابد إذن أن يوناليس كان فى روما سنة ١٢٧ م . وقوله فى القصيدة « كما رأيت بنفسى » لا ينصب إلا على الموائد الممدودة التى رأى مثلها فيما مضى على المعركة التى دارت . وإذن فكل ما يرويه الشاعر من أنباء المعركة ووصفها وتفاصيلها يجب أن يؤخذ بالحذر الواجب مع من ينقل عن سماع .

نحن لا نشك فى قيام معركة بين أهل دندرة وأهل نبط و لبلدتان متجاورتان وقد أقامت دندرة حولها سوراً إتقاء لشر جيرانها[٤] والأوراق

---

(١) لقد كان المنجمون المصريون يمشون فى ركاب الإمبراطور أوتو والإمبراطور ماركوس أوريليوس ويصحبونهما أينما ارتحلا . انظر تاكيتوس « التاريخ » ١ ، ٢٣ وديوكاسيوس ٧١ ، ٨ .

(٢) انظر يوناليس (القصيدة ٦ ، ٥٨٠) فاذا رقدت وقد ألم بها المرض لا تتصور أن ساعة أصلح لتناول الطعام إلا الساعة التى يوحى بها بيتوزيرس » .

(٣) راجع هامش (٣) ص ١٠ .

(٤) انظر G. Highet المصدر نفسه ص . ٢٩ ، وراجع هامش (٢) ص ٢٢

البردية تحدثنا عن قيام أمثال هذه المعارك بين البلدان المتجاورة[١]، والمؤرخون القدماء يشيرون إليها بين الحين والحين[٢]

وإنما الذى نتساءل عنه هو طبيعة هذه المعركة . فقد روى بلوتارخوس أنه عند ما قامت المعركة بين أهل أوكسيرنخوس وأهل كينوپوليس تدخلت الجيوش الرومانية لفضها وإعادة الأمن . ولما قامت المعركة بين أهل منفيس وهليوپوليس فيما تقول « التواريخ الأوغسطية » يمم الإمبراطور هادريانوس وجهه شطر مصر لإعادة الأمور فى نصابها . وهذه معركة تقوم بين بلدتين قريبتين من قفط . وقفط معسكر من معسكرات الجيش الرومانى فى مصر[٣] فلماذا لم يتدخل الجيش لفض المعركة ؟ هل كان قائد الكتيبة الرومانية المرابطة فى قفط أخبر بالعادات المصرية من السائح الرومانى الذى تصادف مروره فى هذه المنطقة ونقل ما رأى إلى يوناليس فى روما ؟ وقد بدأت المعركة بقذف الحجارة فأحرى بالرومانى الغريب أن يبتعد عن معتركها فهو فى الأكثر لم يشهدها عن كثب . بل رأى أطرافاً منها ونقلت إليه أطراف فجمع شملها ورواها للشاعر الذى صاغها بما يتفق مع مراميه فى الدعاية ضد مصر بما يتقنه من أفانين المبالغة والتهويل ، يعينه عليهما ما يلقيه فى حنايا وصفه من لمسات واقعية يستقيها من إقامته فى مصر . والذى يعنينا الآن هو ماذا رأى الراوى فعلا .

إن نبط أقدم مركز لعبادة الإله ست . وقد اكتشف فيها پترى سنة ١٨٩٥ جبانة قديمة ومعبداً فيه صلوات كثيرة موجهة إلى ست نبطى

---

(١) راجع بردى القاهرة ١٠٣٥١ ، ١٠٣٧١ وبردى أوكسيرنخوس ١٨٣١ ، ١٨٥٣ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ . وانظر كتاب "Life and Letters in the Papyri" O. Wienter سنة ١٩٣٣ صفحة ١٧ — ١٨ .

(٢) انظر بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧٢ والتواريخ الأغسطية Historia Augusta فى حياة هادريانوس . وراجع J. G. Milne المصدر نفسه ص . ٣٤ ، ٤٣ .

(٣) راجع J. G. Milne المصدر نفسه ص ١٧٧

أى ست الإله الخاص بنبط أوست إله النبطين وهو ابن نوت إلهة السماء وسيد مصر العليا . ولعل ست كان أقدم إله حظى بلقب سيد فلا بد إذن أن يكون أتباعه ومريدوه قد فرضوا إفهم فى مبدأ العصور التاريخية على الأقاليم الجنوبية وجعلوه أول ملك لمصر العليا . ولم يكن ست من آلهة النور ، بل كان إلها من آلهة الظلام والشر[١] . وهو أعدى أعداء الثالوث الأقدس إيزيس وأزيريس وحورس .

أما إيزيس – فى هيئة هاتور – وهى الأم الكبرى وزوج حورس الأكبر فكانت تعبد فى دندرة فى معقل عبادة خصمها ست وهو فى صورة التمساح سبك[٢] .

ولقد هيأت الطبيعة للإله ست أن يتعالى على آلهة النور . فلم يكن للنّور أن يتغلب على الظلمة . ولا للنهار أن يتغلب على الليل . وهذا الكسوف والخسوف والمحاق القمر كلها شواهد على غلبة ست . هذه كلها كانت هجمات من الإله ست ضد العين اليمنى (الشمس) والعين اليسرى (القمر) للإله حورس . وقد كان المصريون يسمونها معارك السماء (خنوم پت) وكان حورس وست يسميان «المتحاربان» وكان من طبيعة هذه المعارك وهذه الحرب ألا يتغلب فيها الواحد على الآخر بل هى سجال بينهما فيتعادلان فيها كما يتعادل الليل والنهار[٣] . ولقد كانت هذه الحروب والمعارك موضوعاً محبباً فى الأدب الأسطورى المصرى القديم . قال بلوتارخوس «يقول المصريون طبقاً لما يعتقدون ، إن طيفون (= ست) يضرب عين حورس مرة ومرة ينتزعها ويبتلعها . وعندئذ يعطيها ثانية للشمس . وهم يرمزون بالضربة إلى المحاق القمر كل شهر وبالانتزاع يرمزون إلى خسوفه الذى تداويه الشمس بالإشراق عليه فور خروجها من ظل الأرض[٤] .

(١) انظر Moret المصدر نفسه ص ٦٨ – ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ١١٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٠

(٤) إيزيس وأزيريس ، ٥٥

فإذا ما رجعنا إلى القصيدة الخامسة عشر ونظرنا إليها فى هذا الضوء وجدنا أن المعركة قد قامت أثناء العيد ، يوم مد أهل دندرة الموائد أمام المعابد ، وقاموا يرقصون على أنغام المزمار ، وشربوا الخمر حتى ثملوا وتعطروا وكللوا رؤوسهم بالأزهار . ثم حدث الهجوم من أهل أمبي أتباع ست ولكن الحرب بدت للشاهد الراوى كأنها من لعب الأطفال ، ثم استلت السيوف فهرول أهل دندرة متراجعين أمام أهل أمبي أى رجع أتباع إيزيس أمام جحافل أتباع ست فهى أقرب إلى التمثيليات الدينية فى ملابساتها وظروفها كما تبدو من وراء الحجاب الكثيف الذى أسدلته عليها أغراض الدعاية ضد مصر والنيل من سكانها . قد يكون أحد أهل دندرة قد سقط فعلا على الأرض فوقع تحت وطأه أقدام المهاجمين . ويحتمل أن يكون هذا حلقة من حلقات التمثيلية وقد جاء فى وصف المعركة « ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلعب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطأونها » .

قال هيرودوت يصف تمثيلية دينية من هذا الطراز فى بابريميس : « حينما تجنح الشمس للمغيب تتفرغ طائفة قليلة من الكهنة لتمثال الإله ، أما أكثر الكهنة فيقفون فى مدخل المعبد ممسكين بعصى خشبية ، ويقف قبلهم رهط آخر من الرجال يوفون نذورهم وهم يزيدون على الألف عداً ، ويمسكون بعصى خشبية مثل الآخرين . أما تمثال الإله فيوضع فى مقصورة صغيرة من الخشب المذهب وينقل فى ليلة العيد إلى موضع مقدس آخر . أما الفئة القليلة التى كانت قد تركت للعناية بالتمثال فتجر مركبة ذات أربع عجلات فوقها المقصورة وقد وضع فيها تمثال الإله . ويحاول الكهنة الواقفون بمدخل المعبد أن يمنعوهم من الدخول فيخف الذين يوفون النذور لنجدة الإله ويضربونهم ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم وهنا تحمى معركة العصى ، وتشج رؤوس ويبدو لى أن الكثيرين يموتون بجراحهم ولو أن المصريين ينفون أن أحداً يموت من جرائها[1] » .

(١) كانت فى شرق الدلتا ولعلها كانت جزءاً من تل الفرما .

هذا وصف لمعركة ساقه هيرودوت[١] قبل وصف يوناليس للمعركة بين دندرة ونبط بخمسة قرون أو تزيد . كان المصرنيون « يقيمونها تكريماً للإله آريس[٢] » فيما قالوا له . وقد استعملت فيها العصى وشجت رؤوس ، وسالت دماء وكان يبدو للغرباء أن ممن يشتركون فيها من يموت بجراحه ، ولكن المصريين وهم أخبر بدينهم وطقوسهم نفوا هذا الوهم أو حاولوا أن ينفوه من ذهن هيرودوت .

كل هذا يحملنا على القول بأن مارآه من روى الخبر ليوناليس لم يعد أن يكون تمثيلية دينية اشتركت فيها جماهير غفيرة كالتى اشتركت فى الحفلة الدينية التى وصفها هيرودوت « وهم يزيدون عن الألف عداً » واستعملوا فيها الحجارة والسيوف والسهام ، كما استعمل أهل پاپريميس العصى الخشبية ، ولعل من اشتركوا فى التمثيلية الدينية التى وصفها يوناليس كانوا يوفون بعض ما عليهم من نذور مثل إخوانهم الذين اشتركوا فى معركة پاپريميس . وشجت الرؤوس هنا كما شجت هناك ، وسالت الدماء هنا كما سالت هناك ، وخيل لهيرودوت أنه لا بد قد مات بعض من كانوا يوفون النذور بالاشتراك فى المعركة ولكن أهل البلاد طمأنوه ونفوا أن أحداً يموت من جرائها . أما يوناليس أطلق العنان لخياله بعد ما سمع من وصف المعركة فأنهاها بما ظن هيرودوت من أن معركته لا بد منتهية إليه من موت بعض من اشتركوا فيها ، وقد حمله كرهه للمصريين ونفوره من ديانتهم وتوغل نفوذها فى روما على تصوير ما صور من أكلهم للحم المصرى الصريع .

وهيب كامل

(١) هيرودوت ٢ ، ٦٣

(٢) آريس يقابل الإله شو عند المصريين .